المشترك (دبي) ، السنة الرابعة ، العدد ٤٠ ، صفر ١٤٠٧ - نوفمبر ١٩٨٦ .

في المصطلح النقدي

مفهوم الوحدة العضوية

نموذج غربي:

"أغنية الى الرياح الغربية"

دكتور : عبدالنبي اصطيف
(الأردن)

«الرياح الغربية، الحافظة المدمرة، رمز الثورة الأمثل لدى الشاعر، هي القوة الموحدة التي تتخلل القصيدة».

• ربط حركة الرياح الحافظة المدمرة بحركة الفصول الأربعة كفعل النمو الداخلي الحتمي الذي ينتهي بتحقق النبوءة، والولادة الجديدة».

«الرمز يشف بالتدريج عن المرموز اليه ليفصح عنه في نهاية القصيدة».

(١) القصيدة

«Ode to the West Wind»

-١-

يا رياح البحر العاصفة، يا نفساً ينبعث من كيان الخريف،
أنت يا من تساق أمام وجودك الخفي الأوراق الميتة كأشباح تولي هاربة
من ساحر.
صفراء، وسوداء، وشاحبة، وحمراء محمومة،
جموع روعها الوباء. أنت
يا من تحملين البذور المجنحة في عربتك، الى مثواها المظلم الشاتي،
فلا تزال باقية فيها باردة ذليلة، كأنها جسم قد ثوى في رمسه
حتى تجيء اختك اللازوردية... ريح الربيع، وتنفخ في بوقها فوق الأرض الحالمة
فتدفع البراعم الحلوة أسراباً تغتذي في الهواء وتملأ السهل والتل بالعبير والألوان الحية،
أيتها الروح الهائجة، الهائمة في كل مكان،
أيتها المدمرة الحافظة، اسمعي، اسمعي.

-٢-

أنت يا من على عبابك، وسط اضطراب السماء المائج تتناثر السحب كأوراق الأرض الذابلة،
منتزعة من أغصان السماء والمحيط المتشابكة،
رسلاً للمطر والبرق، وهناك تنتشر غدائر العاصفة المقبلة، من حافة الأفق القائمة الى كبد السماء،
كشعر أخاذ مندفع فوق رأس ما ينيديه(*)، هائجة انت يا مرثية
العام المحتضر، سيكون هذا الليل
المطبق قبة لضريحك الهائل،
ترفعها كل قوى أبخرتك المتجمعة،
التي ينبثق من جوها الكثيف
المطر الأسود، والنار، والبرد... اسمعي.
أنت يا من أيقظت البحر المتوسط الأزرق من أحلامه الصيفية، حيث كان يرقد

مطمئناً الى تلاطم أمواجه البلورية ،
الى جوار جزيرة بركانية طافية في خليج بايا ،
ويرى في منامه أبراجاً وقصوراً قديمة
ترتعش في جوف نور الموج الكثيف
وقد كساها طحلب لازوردي ، وزهور
يخور الاحساس عندما يصور حسنها
أنت يا من تنشق قوى الأطلسي المستوية لمرورك
الى أخاديد ، بينما هناك في الأعماق
براعم البحر والغابات الرطبة المكتسية
بأوراق المحيط التي لا عصارة فيها ،
تعرف صوتك ، وتربد فجأة بالخوف ،
وترتجف وتتجرد من أوراقها ... آه ، اسمعني .

- ٤ -

لو كنت ورقة ميتة قد تحملينها ،
أو سحابة مسرعة تطير معك ،
أو موجة تلهث تحت جبروتك ، وتقاسمك
اندفاع قوتك ، وان كانت لا تضاهيك حرية
أيتها المستعصية على كل قيد . آه لو
أعود الى صباي ويصبح في مقدوري
أن أكون رفيق تطوافك في أجواء السماء ،
ففي عهد الصبا كان تجاوز سرعتك السماوية
لا يكاد يبدو نوعاً من الحلم ، اذن لما كنت أبداً تكبدت مثل هذا
السعي كما هو شأني الآن معك في صلواتي وتحت ضغط محنتي
آه ، ارفعيني مثل موجة أو ورقة أو سحابة .
ها أنذا أسقط على أشواك الحياة ويسيح دمي .
إن وطأة الساعات الثقيلة قد غلت وأحنت
انساناً يشبهك انت ، شرودا ، سريعا متكبراً .

- ٥ -

اتخذيني قيثارة لك ، كما هو شأن الغابة :
وماذا لو اخذت أوراقي تتساقط ورأفها ؟
ان ضجيج انغامك الجبارة
خليق ان يستمد منا كلينا نغمة خريفية عميقة ،
عذبة رغم انها مجللة بالأحزان . كوني ، ايتها الروح الهائجة ،
روحي كوني انت انا ، أيتها الثائرة !
ادفعي ، أفكاري الميتة في ارجاء الكون
كما تدفعين الأوراق الذابلة لتعجلي بميلاد كون جديد
ومن خلال سحر هذا الشعر
انشري ، كما تنشرين رماداً وشرراً
من سعير غير خامد ، كلماتي بين البشر !
ومن خلال شفتي كوني
نفير نبوءة لعالم غافل
ايتها الريح اذا حل الشتاء ،
ايستطيع الربيع ان يتأخر بعده كثيراً ؟[1] .

(٢) التحليل :

يشير الاستاذ الدكتور حسام الخطيب فيما سماه «محاولة لتذوق قصيدة شلي»، الى انه «في الأعم الأغلب تتمثل في القصائد الرومنتية الوحدة الشعورية أو الانطباعية، أما الوحدة العضوية فغاية غير سهلة التحقق عند الشاعر الرومنتي المتدفق، ولكن شلي هنا استطاع أن يجعل قصيدته تنمو من الداخل كما تنمو النبتة (على نحو من شأنه أن يرضي كولروج صاحب فكرة الوحدة العضوية)★ وفي هذه القصيدة ليس هناك من نظام خارجي يفرض عليها الوحدة الشكلية، فهي كائن حي متطور من الداخل يستقي قوانين نموه من حركة الأفكار والمشاعر فيه».

وكخطوة ثانية، تلي خطوة تسوية الأرض، في الطريق نحو ترسيخ مفهوم «الوحدة العضوية» (Organic Unity)، فاني سوف أحاول فيما يلي من سطور أن أبسط القول في هذا الحكم المجمل على بنية قصيدة شلي، والذي جاء في معرض تحليل الباحث الخطيب الجيد، لهذه القصيدة التي تعتبر بحق من عيون الشعر الرومنتي الانجليزي خاصة والأوروبي عامة.

★★★

والحقيقة انه ينبغي على المرء أن يشير باديء ذي بدء الى ان شلي كان خلال حياته كلها قارئاً نهماً مدمناً على القراءة ادماناً كان موضع ملاحظة كل من حوله. ومعنى هذا انه كان شاعراً مثقفاً، كثيراً ما كانت تؤرقه قراءاته بما تثيره فيه من أفكار ومشاعر وانفعالات، وخاصة ما اتصل منها بتغيير الوضع القائم الذي رفضه رفضاً شاملاً، وسخر فنه من أجل ازاحته. ★ وربما كان من أبرز ما يميز شلي انه كان غالباً ما يبحث في الطبيعة، التي كان يعشقها مثل أي رومنتي انجليزي، عن رموز، تستوعب أفكاره وانفعالاته وعواطفه، وتكون بذلك معادلات موضوعية لها (Objective Correlatives) اذا ما استخدمنا مصطلح الشاعر المناهض للرومنتية ت. س. اليوت، (T. S. Eliot) وتكون كذلك الطريق الأمثل لهذه الأفكار والانفعالات والعواطف الى قارئه الذي الزم نفسه بالبحث عن مستقبل أفضل له.

ويبدو ان شاعرنا وجد في «الرياح الغربية» (West Wind)، «الحافظة - المدمرة» الرمز الأمثل لثورته، ووفق في ذلك - كما سنرى - غاية التوفيق. وهكذا اتخذ منه بذرة تنمو، ومعها تنمو القصيدة، فيتحقق بنضجها كمال هذه القصيدة، الكائن العضوي.

★ وحتى يكفل لهذه البذرة بعد النمو الداخلي الحتمي، فقد ربط نموها بحركة الفصول الأربعة التي تبدأ بالخريف الذي يأتي على الصيف، وتنتهي بالربيع الذي يحمل تحقق النبوءة، الولادة الجديدة للكون.

★ وربما كان من أهم ما يلاحظه المرء في

عملية نمو الرمز هذه، وفي حصيلتها النهائية، هو أن **الرمز يشف بالتدريج ليبين في النهاية عن المرموز اليه وهو ثورة الشاعر على الوضع القائم.**

* ويترافق هذا **التدرج في شفافية الرمز مع تدرج مماثل في حضور الشاعر**، الذي يبدأ متحدثاً عن غيره، مخاطباً للريح، ليتحول الى حديث يتراوح بين الأنا والآخر، الى توحد تام، يستخدم فيه الشاعر فعل **الكون**، المرتبط أساساً، بالله الخالق.

«كوني أنت أنا».

لينهي القصيدة بتوكيد الولادة.

«أيتها الريح اذا حل الشتاء
أيستطيع الربيع أن يتأخر بعده كثيراً».

* * *

تبدأ القصيدة بالحديث عن حركة الريح على اليابسة، هذه الحركة المدمرة والحافظة في آن معاً، انها تسوق أوراق الأشجار الميتة، تلك الجموع التي روعها الوباء، تلك العناصر التي استنفذت أغراض وجودها، أمامها لتطهر الأرض منها. ومع حركة التدمير هذه والتي تستوعب اليابسة كلها تجري عملية أخرى هي عملية الحفظ التي تتم من خلال حمل البذور الى مثواها المظلم الشاتي حيث تنتظر الحركة الثالثة من سيمفونية الريح، الفصل الثالث من دورة الفصول الذي تنشر فيه، وتملأ وجه الأرض كله، ما علا منها وما هبط بالعبير والألوان الحية. وهكذا تتوحد موجودات الأرض جميعها بهذه القوة الخفية التي تحضنها في تدميرها لها، أو في حفظها اياها، وكيف لا يكون ذلك وهي «روح هائجة، هائمة في كل مكان».

وهذه القوة الخفية الموحدة لا تكتفي باحتضانها لوجه الأرض، فهي تود أن تشمل الكون بمجمله: أرضه، وبحره، ومحيطه، وسماءه، تدمره وتحفظه في آن معاً، وتضفي عليه وحدة غريبة يصعب على المرء تصور شبكة العلاقات التي تنسجها بين عناصرها وبين كل منها وبين الكل. ولهذا يخال ان التصور الوحيد الممكن لهذه الوحدة يكمن في اقامة مشابهة بينها وبين وحدة الكائنات العضوية.

ان هذه القوة تنمو كبذرة تتمدد في جميع الاتجاهات: تتدانى فتشمل اليابسة، وتمتد فتصل البحر والمحيط، وتتعالى فتطال السماء. وتزرع، في حلها وترحالها الكوني الشامل، الدمار بيد، والحفظ باليد الأخرى، شأنها في ذلك شأن ثورة شاعرنا التي يريدها أن تدمر كل ما استنفذ وجوده بشكل أو بآخر في هذا الكون، وان تبني عالماً جديداً يكون «بمنزلة الربيع من الزمان» اذا ما استعرنا عبارة المتنبي.

وهكذا، تتناثر السحب كأوراق الأرض الذابلة أمام مسيرة الريح التي تنتزع من أغصان السماء والمحيط معاً رسلاً للمطر والبرق، أداتي التدمير والحفظ معاً، تنذران وتبشران بالعاصفة المقبلة؛ تنذران بما تحمله من دمار، وتبشران بما تحتضنه في حركتها نفسها من ولادة جديدة. وكما هو شأن اليابسة، ينشق المحيط الأطلسي لمرور الريح ـ الرمز، عن أخاديد تقبع في أعماقها البعيدة براعم البحر التي تؤذن بميلاد جديد والتي تحجبها أوراق المحيط التي لا عصارة فيها، أو لا حياة. نعم ينشق المحيط المستوي الى أخاديد ليفسح المجال لهذه البراعم الجديدة التي تنتظر قدوم الربيع.

* * *

واذ تحتوي الريح الكون جميعه (يابسته، وسماءه، وبحره، ومحيطه)، وتحقق للشاعر ما يرغبه من تدمير وحفظ لهذا العالم، فانه يتمنى لو أنه يواكبها في حلها وترحالها، وفي أية صورة كانت. فهذا لا يهم ما دامت عملية المواكبة هذه تعيد له صباه وما يقترن به من الايمان بامكانية تحقق الأحلام نفسها:

«ففي عهد الصبا كان تجاوز سرعتك السماوية
لا يكاد يبدو نوعا من الحلم».

انه بحاجة الى قوة هذه الريح، وهو الذي يماثلها في شرودها، وسرعتها، وتكبرها، فها هو يسقط على «أشواك الحياة» ويسيح دمه نتيجة «وطأة الساعات الثقيلة» ـ وطأة الزمن ـ التي قيدته وأحنته:

«ها أنذا أسقط على أشواك الحياة ويسيح دمي
ان وطأة الساعات الثقيلة قد غلت وأحنت
انساناً يشبهك أنت، شروداً، سريعاً متكبراً»

وهكذا تبدأ المناجاة ـ الضراعة برجاء حار:

«اتخذيني قيثارة لك»

فاستعيد بذلك روحي الثائرة التي ستصبح اذ تمسها عصاك السحرية قوة تدمير وحفظ معاً:

«كوني، أيتها الريح الهائجة
روحي، كوني أنت أنا، أيتها الثائرة!
ادفعي أفكاري الميتة في أرجاء الكون
كما تدفعين الأوراق الذابلة لتعجلي بميلاد كون جديد
ومن خلال سحر هذا الشعر
انشري، كما تنشرين رماداً وشرراً
من سعير غير خامد، كلماتي بين البشر!
ومن خلال شفتي، كوني
نفير نبوءة لعالم غافل»

عالم يعيش آخر فصوله ـ فصل الصيف ـ أيقظيه بخريفك وشتائك ـ كما أيقظت البحر المتوسط ـ تدمرين فيهما كل مواته، وتبذرين في جنباته بذوراً جديدة تنتظر قدوم الربيع لتتفتح فيه حياة جديدة:

«أيتها الريح، اذا حل الشتاء
أيستطيع الربيع أن يتأخر بعده كثيراً»

هوامش

(١) ترجمت قصيدة شلي «أغنية الى الريح الغربية» أول ما ترجمت عام ١٩٣٠ من قبل مجهول، ثم ترجمها ابراهيم ناجي عام ١٩٣٣، ونظمي خليل عام ١٩٣٦، وابراهيم سكيك عام ١٩٥٠، وعبدالوهاب المسيري ومحمد علي زيد عام ١٩٦٤، وقد أثبت الدكتور حسام الخطيب الترجمة الأخيرة في كتابه: **«جوانب من الأدب والنقد في الغرب»**، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣، ص ص: ١٥٧ ـ ١٦٠، مع بعض التعديلات ولا سيما في المقطع الأخير، وهي ما يقدم للقارىء هنا.

(٢) أنظر المرجع السابق، ص ص: ١٦١ ـ ١٦٨.

(٣) المرجع نفسه: ص: ١٦٦.

(٤) أنظر د. عبدالنبي اصطيف، «في المصطلح النقدي: مفهوم الوحدة العضوية، الى تسوية الأرض»، المنتدى (دبي)، السنة الثالثة، العدد ٢٩، ربيع أول ١٤٠٦ هـ، ديسمبر ١٩٨٥م، ص ص: (٢٠ ـ ٢٣).

(٥) أنظر غراهام هو، **«الشعراء الرمزيون»** (بالانجليزية)، مكتبة جامعة هتشنسون، ط ٣، لندن، ١٩٨٠، ص: ١٢٢.

(٦) نفسه، ص: ١٤٣.

* **(Maenad)**، أو ماينديه كلمة يونانية كانت تعني قديماً المحبوبات ثم أطلقت على الراقصات الشابات المرحات اللواتي يصاحبن الاله ديونيسيوس اثناء الاحتفالات وقد يلبسن ملابس طويلة من جلود الغزلان كما يصورهن الأدب اليوناني.